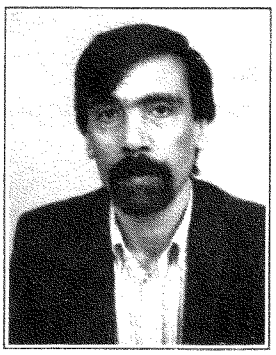

عبد الفتاح كيليطو

عصيان في المسيد(*)

قيل وما يزال يقال الكثير عن المسيد، ذلك المكان الذي يتم فيه اكتساب المعرفة (إذ في كل الأحوال كان الأطفال يتعلمون في المسيد الكتابة والحساب). لقد تم الحديث عن المسيد، من دون شك بنوع من الحنين أو السخط الماضوي. وبالتأكيد تم الحديث عن الفقيه والتعليم الجاف الذي يمنحه لتلاميذ مضطرين لحفظ نص مقدس عن ظهر قلب مع أنهم لا يفقهون منه شيئاً. وقد تم الحديث بالتأكيد أيضاً، سواء بدهشة أو بتسامح، عن تواطؤ الأب والفقيه، بحيث يقول هذا للفقيه حين يصحب ابنه للمرة الأولى للمسيد: «أنت تقتل وأنا أدفن». وبمجرد ما يتم التلفظ بهذه الجملة من قبل الأب يكون الفقيه قد التزم بتطبيقها. نعم كان الأب يسمح للفقيه بضرب الصبي حتى الموت، وكان هو يتكفل بعد ذلك بالجنازة. فقيه قاتل وأب حفار للقبور: هكذا يغدو المسيد بوابة خاصة بالموت.

هل تم مرة النطق بهذه الكلمة القاتلة؟ من منا يتذكر المعاهدة التي سنّت الحكم بالموت على الصبي؟ ومع ذلك فالكل يعلم أن ذلك الحكم قد تم النطق به، ولو أن الأب لم ينبس ببنت شفة. لنكن مطمئنين، فالأمر لا يتعلق إلاّ بمجاز أو مبالغة. لكن لنظل حذرين، فالطفل متهم ولو أنه لا ينتبه لذلك، ويلزمه من ثم الخضوع للموت. إن المسيد هو الفضاء الذي يتم فيه تشخيص القتل الطقوسي. إنها الطفولة، تلك المرحلة الهشة وغير المكتملة والسيئة التي يفرض عليها الحكم بالموت كي يتم التحول الأونطولوجي والقفزة الخطرة والضرورية نحو سن النضج. وبالفعل فإن المرء لا يترك المسيد إلا بعد أن يكون قد دفن طفولته.

لندخل إلى هذا المكان الخرافي زوال يوم من أيام الصيف. الجو حار والطلاب يرتلون القرآن. وأمامي أنا الطفل الهزيل الذي كنته، صبي آخر بدين يبدو عليه الحزن. أنفه مغمور بحبات العرق التي يمسحها بظاهر يده. ثم تظهر، بعد لحظات من ذلك، حبات عرق أخرى فيضطر مجدداً إلى مسحها. لكن ها هي الحبات المعاندة تظهر من جديد وبقساوة لا يمكن تفاديها. كنت أراقب بانبهار كل مرة بزوغها. في البداية تكون الحبات صغيرة جداً لا تكاد تبصر، ثم تتضخم شيئاً فشيئاً. كنت أرى في هذه الحركة الدائمة وفي هذا التكرار، ولو بنوع من الغموض، رمز المسيد في تجدده اليومي. ينام البدين وقد هدته الحرارة. فيأخذ جسده في التأرجح وهذا يجعله يضطر في كل لحظة إلى إمساك نفسه بالتعلق بالفراغ والاستيقاظ بعض الشيء كي يتفادى السقوط. وفي نومه هذا يتمادى الطفل في مسح العرق بظاهر يده.

غير أن الفقيه موجود على الدوام ولا شيء يفلت منه أبداً. هكذا يبدأ مشهد آخر، مع العلم أن المسيد هو بالطبع مكان الفرجة بامتياز. ما الذي يفعله الفقيه؟ إنه يأخذ كوب ماء ويملأ منه فمه ليرش الماء بقوة على وجه الصبي البدين الذي يفيق مذعوراً، والذي يعود للتو لتلاوة القرآن بعينين مذعورتين أمام ضحكاتنا الساخرة. لا يخطئ الفقيه أبداً وجه النائم حتى ولو كان بعيداً جداً. ولكثرة ما كرر الفقيه هذا الإنجاز عدة مرات يومياً، فقد اكتسب مهارة وفناً في الرش عظيمين.

إنه في الحقيقة كائن جبار: فهو قادر على الفعل من بعيد ومن دون أن يحتاج للتنقل. وهو يرى كل شيء من مصطبته العالية ويراقب كل شيء ويعاقب المخطئين بلا هوادة. في حوزة الفقيه قضيبان، أحدهما طويل للعقابات الجماعية، والآخر قصير مخصص للعقابات الفردية (التي تكون غالباً على أخمص القدمين). كان أكبر طلبة المسيد، وهو طالب يعتبر مساعد الفقيه، هو الذي يحضر الطفل لحصة العقاب. وخلال مدة التأديب تتوقف تلاوة القرآن. هكذا تكسر رتابة المسيد إلى فواصل منتظمة تشكلها فرجة العقاب بالعصا. ومع أن هذا المشهد ذو طابع تكراري، فإن الإنجاز العقابي يتجدد كل مرة، ذلك أن لكل طالب طريقته الخاصة في إبداء رهبته، وفي البكاء، واستجداء الفقيه بطبطبة فمه بأصابعه، وفي الالتواء من الألم. إنها علامات لا تنسى، فحتى كبره سيظل ذلك الطالب في نظر رفقائه القدماء الصبي الذي ابتكر طريقة أصيلة في المعاناة.

الكل في المسيد يغبط مساعد الفقيه: فالفقيه يكلفه بمشترياته، وبهذا الشكل كان يشاركه حياته السرية والعجيبة (كنا مستعدين للاقتتال من

(*) المسيد: الكُتّاب القرآني

صدر الأصل الفرنسي للنص في مجلة Lettre internationale، عدد ٣٠، ١٩٩١، تحت عنوان «Révolte au M'sid»

أجل الحصول على شرف حمل قفة مليئة بالمؤن يرسلها الفقيه كل صباح إلى بيته). فالمساعد ليس فقط أكبرنا وأقوانا، إنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، على الأقل في جزئه الأكبر. لكن بما أن الذاكرة ليست معصومة من النسيان فإن حفظه للقرآن يلزم أن يخضع بانتظام للمراجعة. هكذا يجلسه الفقيه إلى جانبه ويطلب منه استظهار ما حفظه. أما نحن فكنا نراقب، مسلوبي اللب، ومن أسفل، هذين الشخصين الخارقين: شيخ عارف ينصت لمريده ويصحح له أخطاءه.

يتم حفظ القرآن من غير أن يتم فهمه. إنه شيء قد يثير السخط لكنه سخط لن يكون في محله، لأنه يفترض أن القرآن، مثله مثل أي كتاب، قابل للفهم، والحال أن كلام الله لا يحده الفهم الإنساني، ولا أحد يمكنه أن يتبجح بفهمه فهماً يقينياً، حتى المفسر الأكثر حنكة والأكثر علماً وفقهاً. إنه كلام لا يُفهم إلا جزئياً، على نحو افتراضي وأحياناً بطريقة متناقضة.

وحده الله قادر على فهم كل معناه وحمولته. ولن يغدو كلام الله شفافاً إلا يوم الساعة حيث يغدو الاتصال بالإلاهي مباشراً ومن غير قطيعة. إنه مَعين من المعاني لا ينضب (ففي التفاسير، تغدو الآية الأكثر وضوحاً وحياداً شعلة من المعاني اللامنتظرة)، لذا يلزم حفظه والحفاظ عليه في القلب، والتأمل الدائم في معانيه. منذ الصبا يلزم التشرب بهذا الكلام، أما فهمه فيعني الحفاظ عليه في النفس ودمجه في الجسد وجعله جزءاً من الحياة الشخصية.

* * *

لكن لا ينبغي أن نبالغ في القول بانغلاق القرآن على الفهم، فهو، قبل كل شيء، «كتاب مبين» يكفي أن نتلوه بتواضع الإيمان لكي يغدو غاية في الشفافية... فالمرتل سواء كان صبياً أو راشداً له حساسية بإيقاع الآيات، هذا الإيقاع الذي لا يمكن أن يخطئه لأنه فريد من نوعه. كلمات مألوفة تكشف عن تاريخ العالم الذي ينظم مساره ظهور الأنبياء الذين يذكّرون باستمرار بالشريعة الإلاهية. ذلك أن بؤس الناس كله ينبع من نزوعهم إلى النسيان.

والمسيد هو بالضبط المكان الذي تستنبت فيه الذاكرة باعتبارها تمريناً شاقاً وبطيئاً لا ينتهي إلا مع المراهقة، لحظة بزوغ الظاهرة الجنسية حين ينفصل المرء عن طفولته لكي يلتحق بالجماعة. فبفضل حفظ القرآن يتم التحكم في سير الأشياء ويتم امتلاك ماضي ومستقبل الإنسانية والاستقرار في الخلود..

لم يكن بحوزتنا ولا نسخة واحدة من القرآن. مع ذلك كنا نعرف جميعاً القراءة والكتابة. ففي هذا الفضاء حيث الحضور العميق للكلمة الإلاهية، يغيب القرآن كمصحف مطبوع. فالطلاب يكتبون على لوحات خشبية لا على الورق، وبمجرد ما يتم حفظ النص تمحى اللوحة. كنا نكتب لنغرق في الأخير الكتابة في الماء. اللفظ في المسيد سيد المكان، ذلك أن يرتبط بالصوت والنَّفْس والنَّفَس والحياة (فأحد ثوابت الثقافة العربية يتمثل في ضرورة أخذ العلم لا من الكتب وإنما «من أفواه الرجال»). إن الكلام القرآني في ارتباطه بالترتيل يشكل طاقة يحملها المؤمن معه وفي نفسه باعتبارها شذرة إلاهية يضمنها جسده ويمزجها بتنفسه.

لم أكن أحب المسيد... كل صباح عندما أفيق من النوم كان تصور الذهاب إليه بالنسبة لي جد مؤلم بحيث كنت أتمنى المرض كي أتمكن من البقاء في الفراش. غير أن المرض كان يتحاشاني، وكان التظاهر بالمرض مضيعة للوقت. إلا أنه في أحد الصباحات، وفي لحظة خروج، توجه جدي إلى جدتي بهذه الكلمات المجنحة: «ليبق اليوم في صحبتك». كان ذلك قراراً لا سبيل إلى فهمه، بيد أن خاصية الكائن المتعالي تكمن في كونها تحتمل المتوقع واللامتوقع في الآن نفسه، وإقامة الشريعة والتكرار، ثم حين لا يتوقع أحد ذلك، تكسير الحلقة الحديدية، وتعليق المسار العادي للأشياء وإدخال المعجزة إلى الوجود. طبعاً سوف تعود الأشياء إلى نصابها في الغد، لكن في انتظار ذلك، كان يوماً خارج زمن المسيد بل حتى خارج الزمن. سوف يقضي الصبي يومه يحوم حول جدته، سوف يراقبها وهي تهيِّئ الطحين وتعجن العجين وتحوله إلى كويرات كبيرة وناعمة كأثداء مليئة بالحليب، أثداء تسطحُها فيما بعد تاركة بصمات أصابعها عليها.

كان التاريخ يتابع مساره لكن حادثة معينة كان مداها يتجاوزني ويتجاوز رفقائي، كشفت، ولو بشكل غامض هشاشة صرح المسيد... ضرب الفقيه يوماً الطالب فاء، واحتج هذا الأخير. لم يبك فاء ولم يستعطف الفقيه ولم يلعب الدور المنوط بالطالب في ظرف كهذا. وعوض أن يظهر علامات الخوف والخنوع قام بمواجهة الفقيه. كان ذلك مشهد التمرد الوحيد الذي عشته في المسيد طَوال دراستي به. وحين أعود بالذاكرة لذلك المشهد أجدني أكن الكثير من التقدير والاحترام لفاء، لكن في تلك اللحظة كان تصرفه مدهشاً، بحيث صدم كل رفقائه. لقد كان يطالب بتعليم خال من العنف، وهو شيء غير مشهود إلى ذلك الحين. للمرة الأولى تم التنديد بشرعية الضرب في المسيد ومن ثم بسلطة الفقيه وسلطة الأب، ومن القريب إلى الأقرب، تم التنديد بكل النظام التربوي والنظام الاجتماعي برمته.

أمام هذا التمرد أبدى الفقيه عنفاً نادراً (كان أربعة طلاب يمسكون بفاء ويحاولون شل حركته فيما كانت الضربات تتلاحق على جسده). وفجأة بدا في عيني الفقيه بريق من الخوف والقلق الأكبر. وكان عليه لكي يحافظ على ماء الوجه وعلى سلطته، أن يظهر بمظهر أكثر شراسة وفي النهاية أجهش فاء بالبكاء تحت تأثير الألم، غير أن دموعه كانت دموع الغضب والحنق. أصابتنا الخيبة لأن الفقيه لم يتمكن من ترويض الصبي، تمنينا لو أنه زاد في ضربه، لو أنه سحق تمرده على نظام المسيد تحت ضربات تمحق عصيانه الشائن. كنا نتمنى لو أنه قتله بالمرة.

يصعب علي اليوم تفسير هذا الموقف التضامني مع الفقيه. هل هو الخوف من الفوضى الذي يدفع إلى الانحياز جهة الأقوى أم هي فتنة الجلاد؟ هل كان ذلك خوفاً من السديم وعدم القدرة على تخيل نظام آخر مخالف لنظام المسيد؟ أم أنها غبطة غامضة تجاه فاء، هذا الصبي النحيف الواهن البنية العاجز عن اللعب والعراك، الذي أبان عن طاقة غير منتظرة واجه بها الفقيه وجسر على فعل ما كنا نتمنى جميعاً، في منطقة ما من وجودنا، التجرؤ على فعله؟ لا، كانت هناك علة أخرى: لقد تشبعنا بقصة أخرى حدثت في الأصل، لحظة خلق آدم، إنها حكاية تمرد الشيطان.

كان فاء يعيد استنساخ عصيان وكبرياء الملاك المخلوق من النار، الذي رفض السجود لكائن مخلوق من الطين. كنا نشاهد آثار المأساة التي حدثت حين فتح الإنسان الأوّل ـ مدعوماً بالعناية الإلاهية ـ عيوناً مندهشة على الأشياء. أمام مشهد من هذا القبيل لم يكن لنا من اختيار آخر غير أن نكون بجانب الفقيه وهو الصورة المثالية بالنسبة لنا، كما ظلت الملائكة بجانب الموقف الإلاهي.

وجد الشيطان نفسه وحيداً ومعزولاً. لهذا جذب إلى مجاله آدم، وأغوى حواء ومن بعدهما ذريتهما، باستثناء ثلة ظلت متكتلة حول الله، هكذا نجح الشيطان في قلب معالم الوضعية: فبعد أن كان وحيداً في البداية وجد نفسه يملك فيالق من التابعين.

ظل الطالب فاء يرتاد المسيد وكنا نتفادى لقاءه. وفي يوم ما انقطع عن المسيد. وعلمنا أنه ولج مدرسة الفرنسيين الكفرة. أما الذين قاوموا جاذبية تلك الفتنة فقد كانوا نادرين، ذلك أننا حذونا حذوه الواحد تلو الآخر. وأخذ المسيد يفرغ تدريجياً من طلابه. وبدأ الفقيه يرى اقتراب اليوم الذي سيبقى فيه وحيداً. لكن أليس العادل دائماً وحيداً؟

* * *

لا يحتفظ فاء في ذاكرته إلا بصورة باهتة عن المأساة التي انفجرت في البيت بين أبيه وجده والتي كان هو السبب غير المباشر فيها. كانوا يتحدثون عنه ويفكرون في إرساله إلى حظيرة شعب أسطوري هم الفرنسيون. سمعت صعقات يتلوها صمت عميق. أما جدته التي كانت تملك فناً سلطانياً في مساندة ابنها من دون أن تعارض زوجها، فإنها تنشط بشكل محموم، بحيث تصرخ أحياناً بصورة أقوى من الرجلين. وفي قاعدة جبل أولمب معقل آلهة الإغريق كان فاء يترصد القرار الفصل وهو يتظاهر باللعب. إن مخلوقاً ما له كامل الحق في أن يكون قلقاً خاصة حين يجد نفسه موضوع خصام بين ذلك النوع من الآلهة.

وافق الجد على مضض. والتحق فاء بمدرسة الكفرة بعد أسبوع أو أسبوعين. وبينما كان فاء يتهجى ذات ليلة كتاباً سمع جده يهمس لجدته: «لقد تعلم الصغير الفرنسية». قال ذلك بنبرة صافية ومتسامحة، بل وراضية كل الرضى. هلى تخلى رب الأسرة عن مبادئه؟ هل حملته ريح التاريخ هو أيضاً؟ هل استسلم للإرادة الإلاهية التي تقرر كل شيء؟ هل فهم أن التحكم في العلم الحديث يمر بتعلم لغة الكافرين؟ هل أحس بنوع من الفخر وهو يرى حفيده يتعلم ويعرف لغة لا يعرفها هو، ولن يعرفها أبداً (إذ لم يكن له بها حاجة)؟ هل أحس بفيض حنان مفاجئ تجاه الصبي الضائع في غابة من الرموز الأجنبية؟

سأميل إلى تفسير آخر: من دون شك أن الجد فهم، وبشكل مفاجئ بأن الصراعات التي تقسم العالم تعود إلى الناس والتاريخ، وليس إلى الألسن واللغات من حيث هي كذلك، وبأن الفرنسية كما العربية هي قبل كل شيء لعبة قواعد نحوية وتركيبية، وبأن كل اللغات لها أهميتها في هذا المستوى، لأن كل واحدة منها هبة من الله. حين طلبت من جدي أن يخبرني عن هيأة الله تبسم. وحين رأى أني سأضيع في متاهة التفسيرات الكلامية اكتفى بجوابي بآية من القرآن: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

كان الفقيه يصطحبنا بعد ظهر كل جمعة إلى المقبرة. كنا سعداء. وكنا نعرف أن جزاء قراءتنا للقرآن على أرواح الموتى سيكون قصعة كسكس، قصعة تبزغ فجأة تحملها نفس كريمة أو بالأحرى ملاك نزل من السماء. هذا الكسكس المبارك الذي يُلْتَهَمُ وسط القبول، كم كان لذيذاً!. ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾.

كانت فترة احتفال، بحيث غابت خلالها مؤقتاً آداب وقواعد المسيد. كان الفقيه غافلاً عن العالم (كان من دون شك يستذكر أرواح موتاه)، لذا سمح لنا بالمرح والجري وسط الأحراش والزهور البرية. وغير بعيد عنا كانت صفحة البحر جد مشرقة. على حائط مثوى أحد الأولياء قشر المطر الجير ورسم وجهاً كبيراً ذا قسمات غير محددة.

كان الفقيه يسير نحو الشيخوخة. وفي مرضه ووهنه كانت رغبته الوحيدة قبل أن يموت هي زيارة الأماكن المقدسة والشرب من ماء زمزم، ورجم الشيطان، والطواف حول الكعبة، ورؤية قبرا لنبي. لكن كان يلزمه لذلك جواز سفر ومن ثم، ويا للرهبة الكبرى، صورة فوتوغرافية.

كان الفقيه يحمل حقداً كبيراً على التصوير، خاصة الصورة الفوتوغرافية بوصفها اختراعاً شيطانياً يضاهي الخلق الإلاهي ويحاكيه. فالسماء والأرض والحيوانات والناس ومختلف أشياء العالم تخرج من صندوق مظلم كما خرجت في بداية الزمن من كنف القدرة الإلاهية. إن الشيطان، سيد الوهم، يستدعي خلقاً جديداً، بالأبيض والأسود على صفحة منبسطة وجامدة. إنها صفحة منبسطة كالمرآة، لكنها خطيرة بمقدار ما هي صادقة صدقاً تاماً في تصاويرها.

«لكن لينفخوا فيها الروح»، هكذا كان يقول الفقيه بنبرة انتقامية، «الصورة الفوتوغرافية خدعة ونسخة باطلة، وظل واهن وانعكاس ماكر، وكل من تعاطاها فهو يتعامل مع عدو الجنس الإنساني ويمس بقداسة الذات الإلاهية».

مع ذلك اضطر الفقيه إلى منح صورته للشيطان فلتأدية ركن من أركان الإسلام، توجب عليه خرق تحريم التصوير. وهذا هو ما يفسر النظرة الحزينة التي يوجهها إلى اليوم إلى كل من ينظر إلى صورته في البيت الذي لم يعد له فيه وجود.

رافقه ابنه إلى البيضاء حيث كان عليه أن يستقل الباخرة. وعلى الرصيف التقيا ثلاثة من الطلبة القدماء الذين أصبحوا رجالاً، يتأهبون لأداء فريضة الحج. وحين رآه هؤلاء هرولوا ناحيته بوجوه مستبشرة. وبما أن الفقيه كان بالكاد قادراً على المشي حملوه حتى الباخرة. وسافروا بعد أن أمنَّهم الابن على صرة تحتوي مصاريف السفر.

شهران بعد ذلك عاد الفقيه، محمولاً بأيدي الطلبة. كان أكثر وهناً من السابق. أعاد الطلبة الصرة كما هي، فقد تلكفوا بكل مصاريف فقيههم. هكذا اهتموا خلال شهرين بتغذيته ونظافته بأنفسهم وعلى أكتافهم أدى شعائر الحج.

ترجمة: فريد الزاهي